من دمعها صنعت طوق نجاتي

شوكت ناصر

كلما تذكرت ذلك اليوم، رفرفت نسائم الذكريات فوق رأسي المثقل بترانيم الحب والبهجة والفرح، فرأيت الأرض قد اكتست وشاحاً مزخرفاً. في ذلك اليوم، ارتديت ملابس المدرسة الجديدة، وكنت كلما أخطو خطوة انظر إليها وأتفقدها فأشعر بالسعادة. وأذكر في هذا اليوم أمي التي أوصت كل أبناء الجيران بأن يوصلوني إلى المدرسة؛ لأني كنت أكبر إخوتي، فأنا بِكرُها، وهي التي كانت دائماً تحببني في المدرسة، لأنها تريدني أن أكون ذا شأن في حياتي.

أيقظتني أمي باكراً، وخرجتْ إلى أبناء الجيران توصيهم بي حتى أصل إلى المدرسة بأمان. وقد تكرر هذا الأمر يومياً، فبعد أن تجهزني للمدرسة، تمسك بيدي وتخرج من البيت وتسلمني لأبناء الجيران. وبعد أن تسمعهم عبارات الحرص والخوف: امشوا على الرصيف ... ما ترجع إلا وهو معك. ولشدة حرصها على تعليمي، أذكر أنها أيقظتني مبكراً في يوم عطلة رسمية لأذهب إلى المدرسة. كان النوم يجاذبني وهي تجذبني بصوتها: تأخرت يا ابني. أتمطى بين ذراعيها، وأقول لها: المعلم قال لنا: غداً عطلة. يا ابني العطلة فقط يوم الجمعة، فأمي لا تعرف أن هناك عطلاً رسمية أخرى للدوام المدرسي، ولكن للأسف ذاكرتي لم تسعفني لأتذكر ما هي مناسبة العطلة في ذلك اليوم. طال الجدال بيني وبين أمي حول العطلة، وهي تقول: أنت لا تفهم ماذا يريد المعلم. و لم تقنع، ومسكت بيدي وخرجنا معاً إلى بيت خالي، وكانوا جيران لنا. فقالوا لها: نعم، المعلم قال لنا: غدا عطلة، ولكنها ما زالت مصممة على أن الجمعة فقط هو العطلة المدرسية. وفي النهاية استسلمت للأمر الواقع، عندما أيقنت أن جميع أولاد الحارة لم يذهبوا إلى المدرسة.

أذكر ذلك اليوم الذي أصبحت فيه في الصف الخامس، فكنت أتمنى منذ دخولي المدرسة لو أن الكرة الأرضية تتحرك بسرعة فائقة؛ لتصنع معجزة خارقة في تخطي الأيام والسنين حتى أصل إلى هذا الصف، لأنه فقط كان يسمح للصفين الخامس والسادس في مدرستي بالذهاب في رحلة مدرسية مع الطلاب والمعلمين. فكانت فرحتي عارمة، ضجت الدنيا بأهازيجها الرنانة. وتساءلت: ما هذه الرحلة؟ لماذا تشكل حدثاً رئيساً في حياتي؟ إنها –بالنسبة لطفل قروي مثلي لم يرَ شيئاً خارج نطاق القرية إلا في الأحلام– المتنفس الوحيد، فهي كيوم العيد بالنسبة لأطفال القرية، فكنا قبل شهر نعد العدة، وكأننا نريد أن نقتحم العالم لتتلقى أحلامنا شهقة عميقة، تخرج بأجنحتها ترفرف في سماء عالية وتشدو ألحان الحرية والفرح.

وما أضحكني وآلمني كثيراً في الوقت نفسه، أنها كانت الرحلة الأولى والأخيرة في مسيرة تعليمي المجيدة، وذلك بسبب اندلاع الانتفاضة الأولى أواخر العام 1987، التي حطمت أجمل أحلامي في التنقل من مكان إلى آخر، وحرمتني من التمتع بالرحلات. فما رافق الانتفاضة من إجراءات احتلالية، قتل أحلام طفولتي، لأنني لم أصل إلى ما كنت أصبو إليه في تلك الفترة، فكان لها الأثر الكبير على حياتنا التعليمية.

أنهيت الدراسة في البلدة حتى الصف السادس. فرحت أمي لأنني قطعت مرحلة أساسية من التعليم، وهي تقول: عليك أن تخرج وتتفق مع طلاب آخرين للذهاب معهم، لأن المدرسة بعيدة، والمواصلات نادرة في ذلك الوقت. فبدأت أعد عدة الرحيل إلى جولة ثانية في غمار التعليم. فأحياناً ينتابني شعور بالفرح، وأحياناً أخرى بالخوف، ولكن الذي هوّن علي أن هناك عدداً من طلبة البلدة الذين قد سبقوني إلى هذه المدرسة، ولهم خبرة بها، فاتفقت مع شلّتي المكونة من أربعة أصدقاء غيري أن نذهب سوياً.

كان يتوجب علينا أن نخرج لبلدة نعلين المجاورة، التي أكملت فيها دراستي الثانوية بين الخوف والحب والشوق والمغامرة. كنا نذهب إلى المدرسة مشياً على الأقدام ذهاباً وإياباً، لمسافة 8 كيلومترات يومياً، والذي أثار خوفي أيضاً ما كان يتناقل إلى مسامعنا من الطلاب السابقين، أن هناك في المدرسة البعيدة من القرية النائية لطفل في الثانية عشرة من عمره، معلماً مخيفاً يحمل عصا عبارة عن «بربيش» ممتلئ رأسه بالجلل، ويستخدمه لمعاقبة الطلاب، وكانت المفاجأة أن هذا المعلم كان هو المستقبِل لنا في يومنا الأول على بوابة المدرسة. وقد أثار الجزع والخوف في نفسي عندما بدأ يصرخ بنا ويقول: انتظروا هناك، فصمدنا لدقائق أمام هذا المعلم، والأفكار والهواجس تتقاذفني من هنا وهناك، حتى انسحبت من رأسي بعد أن حضر المدير، ووزعنا في شعب، فحمدنا الله لأنه خلصنا من هذا المعلم. والذي كسر حاجز الخوف بيني وبينه بعد أن دخل الصف، وتم التعارف، أنه كان يعرف والدي، فكان يعاملني باحترام، وأنا كنت طالباً هادئاً لا أحتاج إلى عقاب (مؤدب من دار أبوي). ولكن الذي زادني ألماً عندما انقسمت شلتي إلى قسمين، ثلاثة منا أصبحنا في شعبة، واثنان في شعبة أخرى، وهذا مؤلم لطفل في عمري لم يعتد على ذلك. فاعتبرنا انقسامنا في شعبتين غربة جديدة لنا، زادت من غربتنا عن البلدة، فتألمنا في البداية، و لم يكن بأيدينا شيء نفعله من أجل ذلك. تخطينا هذه المرحلة، وتغلبنا عليها، فقد كنا نلتقي معاً في الاستراحة، وفي مشوار الصباح، وبعد الظهر. فهذه المرحلة التعليمية جمعت ما بين المتعة والحب والقلق والخوف والحزن، حيث كنا نلتقي في هذه المدرسة من جميع القرى المحيطة حولها، ما فسح أمامنا علاقات واسعة مع الطلاب، فكنا في نهاية الدوام نتّجه إلى بوابة المدرسة أفواجاً وجماعات متناثرة هنا وهناك. لتذهب كل فرقة إلى منحناها في العودة إلى قرانا وبيوتنا، فكانت من بعيد كأنها زفة خرجت من بيت كبير، لتنشرها في الشوارع المتفرقة بأصوات مختلطة ومشاجرات ومداعبات وأغنيات وكل ما يخطر على البال. فهي بالنسبة لي، كانت رمزاً للأمل والمستقبل الواعد، على الرغم من شدة وقسوة التعب والمعاناة في الوصول إلى المدرسة أو العودة منها بعد قطع قوات الاحتلال الطريق بين قريتي دير قديس ونعلين للوصول إلى مستوطناتها، فكان يتوجب علينا أن نمشي مسافات طويلة بين البساتين والطرق الالتفافية، لنصل في النهاية متأخرين عن موعد الدوام المدرسي. هذا عدا عن الخوف الذي كان ينتابنا عندما كان يلاحقنا جنود الاحتلال في الطرقات، فكنا نطارد من هنا وهناك، متحدين الصعاب للوصول إلى المدرسة.

قلمي الآن يخط ذكرى تغزو مخيلتي لترسم صورة لتحدي زملائي الطلاب وصمودهم، عندما كنا نتسلق في الذهاب والإياب منحدرا عالياً، بعد أن شق فيه الاحتلال طريقاً للمستوطنين، فهو مخيف وخطير، ولكننا كنا نذهب جماعات يساعد الواحد منا الآخر في نزول هذا المنحدر وصعوده، لنصل إلى بر الأمان. وما كان يؤلمني كثيراً طالبات البلدة على الرغم من قلتهن، كن يحاولن التسلق مثلنا للوصول إلى مدرستهن أيضاً، فنحن أقدر منهن على هذه الأعمال، فكن يثرن في نفسي الشفقة والنقمة على هذا التعسف الإجرامي من قوات الاحتلال بحق طلبة أبناء دير قديس.

على الرغم من هذه المعاناة، أكملت الإعدادية ثم الصف العاشر، وشعرت أنني أسير إلى مستقبلي الواعد الذي رسمته في مخيلتي رويداً رويداً. فطلبت من والدي الانتقال من المدرسة لالتحق بالحادي عشر علمي، ولكن كلمات أبي تساقطت فوق رأسي مدمرة كل أحلامي، فكانت أشد ألماً عليّ من زخات رصاص الاحتلال التي لاحقتنا في السنوات الماضية على الطرقات؛ بعد أن قال: «لا تحلم أوديك على الموت»، والسبب هو نفسه، حيث كان يتوجب علي الانتقال إلى مدرسة في بيتونيا، وصادف في تلك السنة أن استشهد وجرح واعتقل عدد من الطلاب في هذه المدرسة، حيث تقع المدرسة

على الشارع الرئيسي، ودائماً تحدث على أبوابها مناوشات بين الطلبة وقوات الاحتلال الإسرائيلي الغاشم. فحاولت مع أبي المرة تلو الأخرى لعل كلماته تزف لي خبراً ساراً في القبول، ولكن كل مرة كان الرد أقوى وأردع من باب خوفه عليّ، «لا ... لا تحلم انسَ انك تنتقل من مدرسة نعلين»، فشعرت في وقتها بصخرة تطبق على أنفاسي، فطلبت منه أن أخرج لمدرسة صناعية، ولكنه رفض لأنهم يعتبرون التعليم في اتجاهين فقط: أدبي، علمي، والباقي لا أهمية له.

انطفأت آخر أنفاسي وأحلامي، وتبددت أمام هذه الصعاب سدى لتتطاير هنا وهناك كأشلاء تناثرت بفعل قنبلة، قنبلة فجرت وبددت كل آمالي.

كان هناك القرار. وأي قرار؟ إنها مجازفة لم أعرف كيف اجتاحت أفكاري؟ وأخيراً خرجت مدوية لتخبر الجميع بأني صاحب قرار، ومن حقي عمل ما أريد، فقلت بملء فمي أنا لا أريد الذهاب إلى المدرسة! فتركت المدرسة يوماً واحداً، ولكن بكاء أمي المتواصل –التي كما ذكرت سابقاً كانت أكثر الأشخاص من حولي الدافع والمشجع دائماً لأن أكمل تعليمي، لأسباب خاصة بها على الرغم من أنها أمية لا تفك حرفاً– وأنا لا أستطيع أن أرى دموعها، هو ما حملني للعودة إلى المدرسة من جديد، فالتحقت بالصف الحادي عشر أدبي، وهذا كان منغصاً آخر في مسيرتي التعليمية. وعلى الرغم من ذلك، أنهيت المرحلة الثانوية من نعلين بنجاح سنة 1995.

واجهني إغراء آخر من أفراد عائلتي في العمل في محل تجاري أعدوه لي، بدلاً من إكمال دراستي في الجامعة، لكنني المرة قررت لا رضوخ ولا قبول بأمر واقع. وقفت محطماً كل جبروتهم في قبول ما يريدون، وضربت بعرض الحائط كل تقاليد العائلة، والتحقت بجامعة النجاح سنة 1995، وبتشجيع من والدي، وكنت أول طالب من قريتي يدرس في هذه الجامعة، ودرست فيها الجغرافيا، فأحببت هذه الجامعة حباً جماً. وعلى الرغم من قلة عدد الطلبة الملتحقين بالجامعة من محافظة رام الله، حيث كنا لا نتجاوز الثمانين طالباً من بين تسعة آلاف طالب هم مجموع طلاب الجامعة، فإنني سريعا ما اندمجت مع طلاب قسمي، واتسعت علاقاتي سريعاً أكثر فأكثر مع طلاب خارج القسم، فكانت جامعة النجاح الحضن الثاني بعد حضن أمي، بادلتها مشاعر العطاء والبذل المتواصل للوصول إلى ما أريد.

ولكن، يا فرحة ما تمت! لم تسر الأمور كما أريد، فكان هناك تصميم من العائلة على تزويجي أثناء دراستي الجامعية، لكن عشقي لجامعة النجاح ومتعة الدراسة فيها، حولاني لشخص قوي صاحب إرادة قوية يردع كل من سولت له نفسه أن يقف في طريقي، وفعلاً رفضت في ذلك الوقت الزواج والعمل.

قامت الحرب العالمية الثالثة بالنسبة لي، فتمت مقاطعتي من قبل أبي والعائلة، حتى طال الأذى أمي لأنها كانت دائماً الداعم لي في مسيرتي التعليمية، فكانت تلك الفترة أسوأ أيام عمري، لم أذق مثلها طوال حياتي، ولكن بتوفيق من الله ورضى من الوالدة، استطعت تخطي هذه الأزمة بمساعدة أخي الأصغر الذي اضطر إلى العمل من أجل أن أكمل دراستي، وفي بعض الأحيان أنقم على نفسي لأنني سبب في تعاسة أسرتي بعد أن تركهم والدي، ولكن لم يدم الحال طويلاً، وكانت هذه أول محنة لي في الجامعة. وكانت محنتي الثانية، التي عمت كل الطلبة من خارج مدينة نابلس، قيام قوات الاحتلال سنة 1997 بحفر أنفاق تحت المسجد الأقصى، فقامت على أثرها مظاهرات في جميع المدن، وحوصرت مدينة نابلس 40 يوماً. وهذا أمر صعب على طالب كان يعود كل أسبوع إلى أسرته للاطمئنان عليها والتزود بمال يكفيه لمدة أسبوع، ولكن في هذه الفترة حوصرنا داخل المدينة، و لم نستطع العودة إلى بيوتنا. فأنفقنا كل المال الذي لدينا، على الرغم من التقتير على أنفسنا. أيام طوال ننام بالجوع، لذلك خرجت مع مجموعة من الطلاب إلى الجبال، لنحضر بعض الأعشاب المعروفة لدينا مثل: ورق اللسان، والطوطو، والخبيزة، وأطهوها بنفسي للطلاب، ونأكل –بالمناسبة كنت طباخ السكن– واستمر الحال حتى رحمنا ربنا، وأفرج عنا بفتح الطرق والعودة سريعاً إلى الأهل، وقد تحسنت علاقتي مع أبي، واعترف لي بأنه كان يقسو علي في بعض قراراته، وأصبحنا أسرة مليئة بالسعادة والحب، على الرغم من مقاطعة العائلة لنا بسبب رفض الزواج من ابنة أحد أقربائي، التي لم أعرف متى تمت خطبتي عليها؟ أو قراءة الفاتحة مثل عادات الجاهلية قديماً؟ فمنذ الصغر وهي على اسمي، ومجبر أن أتزوجها لأنه على حد قولهم –مربوطة لك– لم يفكروا في مشاعري ومشاعرها، ما ذنبي أنهم سجلوها على اسمي؟! وهذا عند أهل البلدة عيب في حق العائلة، فلا يحق له بعد أن أصبح في الجامعة أن يرفضها، ولكن بمساندة أمي وأبي استطعت تخطي هذه العقبة، وذهب كل واحد منا في حال سبيله، وذلك بعد أن قاطعت كل العائلة أسرتي وانقطعت الصلة بينهم سنوات عديدة. بعد هذه المحنة الكبيرة، عدت إلى الجامعة بنفس قوي وعزيمة تتوثب في وجه الصعاب، لما يراودها من أمل، فكانت تلك المحن حافزاً للمثابرة أكثر والوصول إلى المبتغى، فيسر لي ربي سكناً ملائماً، حيث كنت في الجامعة أسكن مع خمسة طلاب من مدن عدة، ولكن كان يجمعهم أنهم يدرسون تخصص الصيدلية، وهذا يعني أنهم كانوا باستمرار يدرسون. فكان جو السكن جواً دراسياً، ما دفعني إلى تسجيل ساعات أكثر في كل فصل، فأنهيت الدراسة في ثلاث سنوات بحمد الله. وتخرجت من جامعة النجاح الوطنية التي أحن دائماً إلى أبنيتها، وهوائها، وطلابها، وأساتذتها، وكل شيء فيها، سنة 1999، وكانت السنوات الأخيرة من أجمل أيام عمري بسبب الهدوء النفسي والاستقرار الأسري والثقة بنفسي.

بعد تخرجي حدثت المفاجأة، إذ كان علي حتى ألتحق بالتربية والتعليم في مديرية رام الله، أن أقف على طابور نواطير الحظ في الوظيفة، ولكن الله قدر لي أن أعمل مدرساً في ضواحي القدس العام 1999. ولكن قبل أن يتم تعييني، عملت شهوراً في أعمال البناء، وكنت أتلقى أجرة كبيرة، ولكن عندما عينت فرحت وفرحت أسرتي على الرغم من الراتب الزهيد الذي كان بقيمة 1300 شيكل. وقد كنت أحصل على أضعافه في العمل السابق. إلا أن متعة العمل في السلك التعليمي، الذي كنت أحلم به، جعلني زاهداً في المال الذي أحصّله في عملي السابق. فاندفعت بحب ونهم إلى وظيفتي على الرغم من بعدها عن مكان سكني، فكانت في نظر غيري لا تستحق هذه المجازفة، فحتى تعيش يجب أن يكون طعامك يومياً عدساً، وقد رددها لي المعظم، ولكن لم أصغ لكلامهم، و لم يغريني المال، ولا العمل الذي وُفر لي، بل ذهبت إلى وظيفتي وكأن دروب الحياة فتحت أمامي، أتخطاها بخطى العزم والإرادة على الرغم من بعد المسافة، ولكن الاحتلال رافقني طوال مسيرتي التعليمية، حيث اندلعت الانتفاضة الثانية العام 2000. وكأن الأيام تعيد نفسها من حيث الطرق الالتفافية، حيث كنت أستقل خمس مواصلات حتى أصل إلى المدرسة، عدا عن صعود الجبال والطرق الترابية من مكان إلى آخر، وحر الصيف، وبرد الشتاء. فكان هذا الحال يعود بي إلى أيام الدراسة والسير على الأقدام، وها هو يعود مرة أخرى وأنا معلم، حيث ما زلت أجوب الجبال والمسافات الطويلة للوصول إلى المدرسة، وألتقي الطلبة الذين كانت علاقتي بهم طيبة، أحببتهم وأحبوني، وأحببت المدرسة والزملاء. وبعد ممارسة التعليم على أرض الواقع، لم أرَ كل شيء كما كان في مخيلتي، أو كما خططته أحلامي. فالطالب كائن بشري ليس من السهل التعامل معه ببساطة، فالمعلم يجب أن يمتلك

الأساليب والمهارات التي تمكنه من التعامل مع هذا الطالب. فاكتشفت من خلال خبرتي الطويلة أن المادة التعليمية للطالب شيء إجباري مكلف بحفظه، وتأدية الامتحان فيه، دون أن يهضمها أو يتمثلها في حياته اليومية.

لم يكن هناك حافز على البحث والاستطلاع، وذلك لأسباب عدة: منها ما يعود للمعلم الذي صدمت بواقع حياته، فقد تغيرت نظرتي إليه التي كانت نظرة أسطورية خارقة، فبدلاً من أن ينتظره مستقبل واعد، تزداد حياته بؤساً وشقاءً.

فالمعلم يصطدم بالمدير والمشرف يومياً؛ لأنهم يريدون منه أن يكون آلة ناسخة في عهد ولّى فيه النسخ، بحجة ضعف الطلاب، فلم يتوفر المناخ التعليمي الملائم للطالب والمعلم، من حيث الصفوف المعدة والمجهزة بكل ما يحتاجها المعلم من وسائل معينة له في تسهيل عملية التعلم، كما أن المنهاج بحاجة ماسة إلى تقنين من حيث الكم والنوع، فمعظمها يكرر الآخر، ما يرهق المعلم والطالب، ويعيق عملية التعلم اللامنهجي المحبب لدى الطالب. على الرغم من ذلك، ما زلت أحب مهنتي، وأحاول قدر مستطاعي تخطي العقبات وتطوير نفسي، وأكبر دليل على ذلك التحاقي بمساقات مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، التي تساعدني في تنويع الأساليب التعليمية المحببة للطلبة. كما أنني كنت من المسؤولين في لجنة المبحث في ضواحي القدس، التي من خلالها نتعاون معاً في وضع الخطط العلاجية لحل مشاكل الضعف عند الطلاب، وأمور خاصة بالمنهاج. وأنا اليوم مسؤول عن لجنة المبحث في مدرسة خربثا بني حارث، التي انتقلت إليها في العام 2002، وما زلت فيها، لأنها قريبة من قريتي دير قديس. وعلى الرغم من صعوبة المواصلات، إلا أن الفضل يعود لـ»السيارة المشطوبة»، واندمجت مع أهل القرية لقربهم أيضاً من أهل قريتي، وتعرفت عليهم كثيراً، ودرست فيها الأب عندما كان طالباً، ومن ثم درست أبناءه، وأصبح بعض طلابي زملاء لي في المدرسة، وحققت مرادي بدافع من الصبر والعزيمة والتحدي، وهذا ما جعلني أحب مهنتي أكثر، على الرغم من صعوبة الظروف التعليمية في مدارسنا. فنحن بحاجة ماسة لتعاون صادق من جميع الجهات المسؤولة، في تحسين عملية التعليم في بلادنا، حيث يحتاج الطالب تعلماً آمناً مبدعاً بعيداً عن الخوف والعقاب، ليبتكر ويحقق مواهبه وطموحاته، ويكون من بناة المستقبل الواعد لأمته.

مدرسة ذكور خربثا بني حارث الثانوية